٥. مستويات علاج الاضطرابات السيكياترية في مراكز رعاية الصحة النفسية والمشافي والإصلاحيات والسجون والعيادات

جرت العادة في السابق أن يرسل المضطربون نفسياً إلى الأطباء النفسيين ومشافي الأمراض العقلية. ولكن العقدين الماضيين شهدا ثورة كبيرة في مجال الطب النفسي وفي تفرعاته. فقد لحق الطب السلوكي، وعلم النفس الطبي بالطب النفسي، ونتيجة لاتساع الآفاق العلاجية وتخصصاتها، انعكس هذا الأمر على الطب العام، فخرج الطب البشري ذاته عن نظرياته العلاجية الكلاسيكية التي تركزت على علم الأمراض العضوية المنشأ، وعلى السبل العلاجية التي كانت تتمحور حول علاج المرض العضوي بمعزل عن علاقة النفس في الإمراض، وفي اعتلال العضوية ذاتها. وهنا ظهر علم جديد يسمى علم الأمراض النفسية ـ العضوية (السيكوسوماتية)، وتم تصنيف بعض الأمراض العضوية ذات المنشأ النفسي، مثل القرحات الهضمية، والربو القصبي، وبعض الاضطرابات القلبية ـ الدورانية، والصداع الوعائي، والصداع التوتري، فصارت تعالج اليوم بالعلاج النفسي ـ الفزيولوجي (العلاج السلوكي). ولا ندري ما تخبئ لنا الاكتشافات العلمية الطبية من تصانيف لأمراض عضوية لتدخل ضمن إطار علم الأمراض النفسية ـ العضوية بعد ما كانت تعالج وفق مبادئ تُركِّز على أساس عضوي بحت. إننا نسمع اليوم بأمراض التوتر النفسي كمصطلح جديد أخذ يظهر في الطب السلوكي، وعلم النفس الطبي، وهو مرادف للأمراض النفسية ـ العضوية (السيكوسوماتية).

إذن لقد تبدل مفهوم علم السببية في الطب البشري، فاتسع ليشمل علاقة النفس في الأمراض العضوية، أي علاقة النفس بالجسد التي تكلم عنها علماء الإغريق وفلاسفتهم، وأشار إليها علماء الطب العرب مثل ابن سينا إشارة صريحة. ونتيجة لهذا التطور في مفهوم علم الأمراض في الطب البشري فقد أعيد النظر بالأدوار العلاجية الملقاة على عاتق الاختصاصات الطبية، وأسند للطبيب العام الممارس دور أكثر ضلوعاً في علاج أمراض التوتر (السيكوسوماتية)، لأنه أول من يصادف مثل هذه الأمراض في عيادته.

لقد دلت الإحصائيات أن ٢٥٪ تقريباً من المرضى الذين يراجعون عيادات الأطباء العامين يشكون من اضطرابات عضوية وظيفية نفسية المنشأ؛ ونتيجة لذلك طورت برامج التدريس في كليات الطب في العالم فأدخلت فيها الأمراض النفسية ـ العضوية.

وهكذا انتزع من الطبيب السيكياتري الكثير من المهام العلاجية على مستوى الطب النفسي، لتدخل في نطاق اهتمامات الطبيب العام واختصاصه. بينما تركت كبريات الاضطرابات السيكياترية للطبيب النفسي (السيكياتري). وهذا الاتجاه تتبناه منظمة الصحة العالمية اليوم. وتمشياً مع هذا الاتجاه الحديث ألفت كتب اختصاصية لمساعدة الطبيب العام، لأنه صار يحتاجها في عيادته، من أحدث هذه الكتب «المعين في الطب النفسي »[1] الذي يقدم للطبيب العام الحديث من أمراض سيكياترية، ولا سيما الطبيب العام الذي يعمل ضمن الوحدات الطبية للعناية بالصحة النفسية، ويقول مؤلف الكتاب: «إنه (أي الكتاب) عون للطبيب العام في العالم العربي الذي لم تسعفه دراسته في كلية الطب أن ينهل من الطب النفسي من علم وخبرة في المجال السيكياتري » وذلك لكي يرقى إلى مصاف الطبيب العام الحديث في العالم الصناعي الذي أضحى يعالج الأمراض النفسية على المستوى الذي يصفه الكتاب[2].

---

(١) الحجار، محمد حمدي. المعين في الطب النفسي. دار طلاس، دمشق ١٩٩١.

(٢) المرجع السابق ص (٧ - ١١).